El-Bradie and Nobel
Mohamed Kadry Said

البرادعى.. ونوبل
د. محمد قدرى سعيد

بقدر اشتياق البرادعى إلى الفوز بجائزة نوبل المرموقة، بقدر تمنى جمهور واسع لحصوله عليها إعجابا بالرجل ونكاية فى بريطانيا والولايات المتحدة. فى السنوات الأخيرة كان اسم البرادعى يتردد باستمرار على رأس قائمة المرشحين لجائزة نوبل، لكن النتائج فى النهاية لم تكن تأتى بما يشتهى الناس حتى أعلن فوزه بها فجأة، بعد أن كان الأمل فى حصوله عليها قد تضاءل تماما. هناك فى المقابل من ينكر على البرادعى والوكالة استحقاقهما للجائزة، فلا يوجد لهما من وجهة نظر هذا الفريق عمل كبير أو اختراق مبهر فى مجال منع الانتشار. فعدد الدول المشكوك فى أمرها نوويا يزيد باستمرار، كما أن الوكالة مازالت إلى الآن وبقدراتها الذاتية غير قادرة على معرفة ما يجرى فى الخفاء فى المجال النووى داخل دول كثيرة.

منذ شهور كتبت فى هذا المكان عن البرادعى بمناسبة التجديد له لفترة ثالثة على رأس الوكالة الدولية للطاقة الذرية ووصفته بأنه يمتلك "قلب شجاع وعقل مرن". وأعتقد أن فوزه بالجائزة قد جاء بسبب موقفه الشجاع إبان حرب العراق، وأيضا اعترافا بطريقته الرصينة فى التعامل مع القوى الدولية، الكبرى منها والصغرى، وأيضا سعة صدره وحزمه فى نفس الوقت مع الدول المتحايلة على معاهدة منع الانتشار أو المتمردة عليها فى بعض الحالات. ربما أهم ما وضع البرادعى داخل دائرة الضوء ورشحه للجائزة هو إصراره على أن تظل الكرة دائما فى ملعبه وألا يتركها شاردة بين أقدام الآخرين. فى حالة العراق، وبعد حرب إخراج صدام من الكويت، أخذ البرادعى على عاتقه تفتيش العراق نوويا بدقة، وخلق علاقات عمل مع المسئولين العراقيين كانت مفيدة فى مرحلة ما قبل الغزو الأمريكى للعراق فى عرض رأى واضح أمام مجلس الأمن ملخصه أن العراق لا يملك برنامجا لتطوير قنبلة نووية، وأن الوكالة تحتاج إلى فترة إضافية للخروج بتقرير نهائى يؤيد وجهة نظرها. وهى نفس النتيجة التى خرجت بها اللجنة الأمريكية للبحث عن أسلحة دمار شامل فى العراق.

فى حالة إيران يرجع الفضل للوكالة فى الكشف عن تجاوزاتها فى مجال تخصيب اليورانيوم. ومنذ هذا الاكتشاف لم يدع البرادعى الكرة تخرج من ملعب الوكالة وحرص على ألا يدفع إيران إلى الانسحاب من المعاهدة فتنتهى ولاية الوكالة الدولية عليها. كذلك وقفت الوكالة فى وجه الإسراع بإرسال ملف إيران إلى مجلس الأمن وهو الأمر الذى تشجعه الولايات المتحدة حتى الآن. وجهة نظر البرادعى كما يبدو من إدارته للأمور، أن إحالة الدولة إلى مجلس الأمن يفقد الوكالة الدولية قدرتها على التحكم فى مسار الأحداث بعد ذلك، ويجعل دورها هامشيا، ويحولها إلى مجرد جهة فنية للتفتيش وكتابة التقارير بدون رؤية سياسية عميقة تأخذ فى الاعتبار دواعى لجوء الدول إلى الخيار النووى. لقد نزع البرادعى عن الوكالة بشخصيته المحببة الدمثة والمريحة صفة "المفتش" العابس المتشكك فى كل شئ، وأعطاها دورا ناصحا ومشاركا مع الدولة فى الوصول إلى أفضل الحلول للتوفيق بين احترام السيادة الوطنية مع الحفاظ على الأمن الدولى فى نفس الوقت.

يُجسد البرادعى بشكل رائع صفة "الموظف الدولى"، وهى صفة حديثة برزت بعد الحرب العالمية الثانية وإنشاء الأمم المتحدة. هذه الصفة تتطلب من الشخص الذى يتولى هذه الوظيفة أن ينزع عن نفسه صفته الوطنية ويضع مكانها ضميرا عالميا ينظر به إلى البشرية كمجموعة واحدة لها أمن واحد

ومصير واحد. هذه المسافة بين ما هو "وطنى" وما هو "دولى" تضع الموظف الدولى تحت ضغوط شديدة. عندما زار البرادعى مصر العام الماضى لم يتم استقباله بالترحاب الذى يستحقه من المثقفين المصريين لظنهم أنه لم يفعل ما يكفى لإنهاء احتكار إسرائيل للقنبلة النووية. وكثيرا ما وجه إليه الاتهام بأن الوكالة تقوم بالتجسس لصالح الولايات المتحدة وإسرائيل. وعلى الجانب الآخر كانت الولايات المتحدة تنظر إليه على أنه رجل يتجاوز صلاحيات وظيفته، وأنه غير واع بمتطلبات الأمن الغربى خصوصا بعد أحداث 11 سبتمبر. هذه النظرة الأمريكية – خاصة مع الإدارة الحالية- ترى فى الوكالة مجرد أداة لتحقيق الرؤية الأمريكية. واجه هذه المعضلة من قبل مصرى آخر هو بطرس غالى السكرتير العام السابق للأمم المتحدة، وهى صفة تبدو سائدة فى معظم المصريين جوهرها ضعف الانبهار بالولايات المتحدة أو بقدراتها الهائلة أو بدورها العالمى. وقد يُحسب للولايات المتحدة أنها برغم ما فعلته من أجل إزاحة البرادعى من مكانه واستبداله برجل آخر أحنت الرأس فى النهاية عندما وجدت إجماعا دوليا عليه، ورفضا من زملائه الترشيح ضده عندما جاء وقت تجديد رئاسته لفترة ثالثة.
لقد حصل البرادعى على جائزة نوبل لأن عمله لم يقتصر على "حرفة" التفتيش بل امتد إلى خلق "رؤية" مصاحبة لهذه العملية الصعبة، مستفيدا من التغيرات العميقة فى المجتمع الدولى التى جعلت منه نجما تجرى خلفه وسائل الإعلام، ويحرص على لقائه الزعماء والناس. ولم يكن ذلك ممكنا بدون دفاعه الشجاع عن طريقته فى إدارة الوكالة، وفوزه بالضربة القاضية فى معركة وجود أسلحة دمار شامل فى العراق، وما أعقبها من معارك فرعية مع الإدارة الأمريكية والبريطانية انتصرت فيها رؤية ومعلومات وكالة البرادعى على أجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية كما حدث فى قضية الوثيقة المزيفة عن شراء صدام اليورانيوم من النيجر. هناك أيضا فضل كبير للبرادعى والوكالة فى إدارة الأزمة النووية مع كوريا الشمالية، والوصول بالأزمة مع جهود الدول الإقليمية إلى نتائج أفضل.

التحدى الأكبر أمام البرادعى والوكالة يتمثل حاليا فى إيران. ومن حسن الحظ أن إيران برغم تشددها تريد أن تعمل فى إطار الوكالة ويمثل ذلك فرصة للبرادعى فى إثبات قدرة الوكالة على طمأنة الدول الكبرى والمجتمع الدولى بأن إيران لا تمتلك برنامجا نوويا عسكريا، وأن كل أنشطتها تصب فى المجال السلمى. ولقد حرص البرادعى على التعبير فى أكثر من مناسبة بأن وسائل التفتيش يمكن أن تتحسن وتتقدم لكنها أبدا لن تكون حاسمة بنسبة مائة فى المائة. لذلك من الضرورى أن يصاحب التفتيش تقدما فى مجال الأمن الإقليمى، وبناء الثقة بين الدول، والسير فى طريق طويل لحل المنازعات وإعلاء ثقافة التعاون والشفافية، والسير فى المشروع التى بدأته إيران مع مصر فى سبعينات القرن الماضى لإخلاء منطقة الشرق الأوسط من الأسلحة النووية.